(قصّة قصيرة)

ضحكتان

عبد الرحمن مجيد الربيعي

جلست قبالته ، كانت في يدها مجلة ملونة ، طوتها وضغطت عليها بأصابعها ، وكان هو ينظر اليها وهي تحني جسدها قليلاً إلى أمام كعادتها عندما تجلس . ترفع المجلة وتعضّ طرفها بشفتيها ثم تكفّ عن ذلك . تضعها على الطاولة أمامها وتمسح يدها ببنطلونها الجنز . يلقي نظرة عجلى على غلاف المجلة ، ثمة مجموعة من الوجوه وُزّعت عليه بينما احتل عنوانها بحروف بارزة القسم الأعلى من الغلاف .

كان النور يتسرب من النافذة المفتوحة التي تقع أمامه تماماً . يراقب توهّج الضوء في شعرها الاشقر المعقوص الى الوراء ، وكذلك إلى تلألؤ اللون البنّي في عينيها الواسعتين وهما تغطّان في التعب والسهوم .

قال لها مستبشراً :

ـ أهلاً بك .

وابتسمت من ترحيبه وهمست بكلمات لم يسمعها جيداً .

انها هكذا دوماً تكتفي بالهمس بكلمات ناعمة أو بالضحك الفاتر وهي تطأطى رأسها قليلاً كطفلة اقترفت ذنباً ثم تقرفصت في زاويتها خوفاً من العقاب .

أحسّ بأنها فيه ، موغلة في كل مسامة منه ، في كل خليّة ، وأن الأيام والساعات التي انفقها معها تبدو كحلم زال ولم تبق إلا حلاوته النادرة تحت لسانه ، يحس بطعمها الرائق باستمرار ، هنا وهناك ، في المدن الغريبة ، في الشواطىء ، في المقاهي والبارات . في الساحات العامة والشوارع العريضة ، في واجهات العرض وثرثرة السياح .

قال لها :

ـ ها انك تعودين فأهلاً بك .

وأضاف بلهجته المرحبة نفسها :

ـ لقد طال رحيلك !

قالت له :

ـ الرحيل جميل .

ـ ظللت أتوقع رؤيتك في منعطف كل شارع أو في زحمة الوجوه التي تعج بها هذه المدينة .

ابتسمت له ، طأطأت رأسها . ثم مدت يدها والتقطتْ المجلة وطوتها ، نقرت بطرفها على سطح الطاولة وعادت وأفلتتها ورمتها أمامها بينما كان صوته يواصل البوح :

ـ كان غيابك فجيعة لي ، غطست في فراغ كبير لم تستطع أية قوة أن تردمه ، لذا أخذت أفر إلى الشوارع البعيدة والأزقة وزحمة الاسواق متوهماً بأنني سأعثر عليك أو أتناساك .

ـ ولكنني جئت .

وهز رأسه قائلاً :

ـ أعرف انك ستعودين يوماً ، فهذه المدينة قدرك ، اينما ستفرين ستعودين اليها لتجمعي بقاياك المشتتة في واحد من بيوتها الآمنة .

وتقول استنكاراً :

ـ لا يمكنني أن أتصور هذا . رحلتي القادمة ستكون بلا إياب .
ـ إلى أين ؟
ـ لا أدري . ربما إلى مكان ما هناك .
! أنت تحلمين !
ـ أبداً ، ربما تبدأ الأمور بحلم . ولكنني جعلت من كل احلامي حقائق ، رحلت مرات ، ولم أكن خائفة من شيء .
ـ وعن أي شيء تبحثين ؟
ـ لو عرفت لكففت عن الرحيل .
بلعت ريقها وقد دبّ الحماس الى صوتها الناعم الأسيان :
ـ بدأت بتحقيق بداية الحلم عندما عملت مضيفة قبل سنوات ، حملتني الطائرات المغادرة الى اماكن بعيدة ، عرفت أقواماً ولغات ووجوهاً وبنايات وأنهراً وبحاراً ، ولكنني اكتشفت سخف ما كنت أصنعه ، فقدّمت استقالتي وبدأت أول رحلة لي الى هناك .

وأشارت بيدها معبرة عن البعد ، ارتفع ذراعها الأبيض العاري وهو ينسل من جسدها الناعم المتكوم على الكرسي أمامه .

ودّ لو ينهض ويقبّلها . إنه يحسّها فيه ، لا يمكن أن يقاوم مكوثها بعيدة عنه ، ولو كان هذا البعد مسافة لا تتعدى المتر . في تلك المدن البعيدة كان يحتضنها ، يمسك بيدها أو يطوقها ، يضع ذراعه على كتفها ، يضغطها برفق ثم يقبل خدها أو شفتيها في تلك الشوارع العامرة ومن حولهما تمر الاجساد اللاهية دون أن تأبه لما يصنعان .

نظرت اليه بعينيها الساهمتين ، زرعتهما في عتمة عينيه برهة ثم ابتسمت بصفاء .

رازها هو الآخر ثم نهض من مكانه وأمسك بوجهها بين يديه ، ربّت على خديها ، ثم انحب عائداً إلى مكانه وهو يقول :
ـ أودّ لو كنا ملتصقين ببعضنا إلى الأبد كتوأمين سياميين !
ـ ولكنني خائفة من أن تملّني يوماً !
وقاطعها بقوله :
ـ سأملّ نفسي اذا مللتك ، لأنك أنا بكل غضبي وطيبتي ، ببداوتي واشتياقي فكيف أطيق الفكاك منك ؟
وتساءلت ببساطة :
ـ ولماذا لا ؟ فأنا بالنسبة لك مجرد مائدة فراغ .
وردد بشيء من العتاب :
ـ أهكذا تقولين ؟
ـ لأنك لا تسأل عني أو تزورني إلا عندما تكون خالياً وليس لديك ما تفعله !
ـ أيّتها اللئيمة أهكذا ببساطة تنسفين هذا الشوق ؟
وأردفت مواصلة هجومها :
ـ ولم تكلف نفسك حتى سؤالي عن رقم الهاتف الذي خاطبتك منه لأطمئن عليك وأعرف أخبارك وأنا في تلك المدينة البعيدة !
وردد مستسلماً :
ـ لقد أمسكت بي ، غلبتني هذه المرة ، ظننتك تتكملين من الشارع أو من محطة قطار !
ـ إفترض ذلك ، ولكن كان عليك أن تسألني .
وحاول اصطيادها :
ـ ولماذا لم تخبريني أنت ؟
وقالت محاولة أن تنهي هذا الحوار :
ـ ربما لم تكن بحاجة لأن تكلمني ثانية !
ـ أهكذا تتحدّثين عني وقد ملأ صوتك البعيد حياتي وأمطرها بالانتظار السعيد ؟
أحنت رأسها ، التفتت . ذات اليمين والشمال ثم مدت يدها الى المجلة والتقطتها ، نظرت بعينين فاحصتين إلى الوجوه التي ضمها الغلاف دون أن تنبس بكلمة .
سألها :
ـ مالك وهذه المجلة ؟
نهضت اليه وعرضت عليه الغلاف وهي تشير بأصبعها إلى أحد الوجوه التي ضمها وتقول :
ـ يهمّني هذا .
ألقى نظرة على الوجه الذي أشرت اليه ، كان له شاربان طويلان يتدليان على جانبي فمه بينما غطت عينيه نظارة طبية .
وتساءل :
ـ وبماذا يهمك هذا ؟
وقالت وقد ازدادت لهجتها سرعة :
ـ لقد كان في السجن وفوجئت بخروجه منه .
وعاود التساؤل الحائر :
ـ وما دخلك به ؟
ولكنها واصلت تساؤلها :
ـ هل لك أن تعاونني في العثور عليه ؟
ـ أنا أعاونك ؟
وهزّت رأسها مؤكدة :
ـ نعم . ولماذا لا ؟
وردد بشيء من اللامبالاة المبهمة :
ـ تعرفين انني غريب في بلدك هذا وان الوجوه التي أعرفها معدودة !
وأضافت دون أن تتوقف عند اعتراضه :
ـ ذهبت الى ادارة المجلة وسألت عنه ، اخبروني انهم لا يعرفون عنه شيئاً وان كاتب التحقيق قد التقى به ورفاقه في مكان ما ليعرف رأي الحزب الذي ينتمون اليه في الأحداث الجارية بالبلد .
ـ هذا كل شيء ؟
ـ نعم .
ألقى بالمجلة على الطاولة وصورة عيني الرجل الغريب تنفذ اليه من وراء نظارته الطبية كأنهما تخبئان سراً ما .

سألها محاولاً أن يسيطر على الاحتقان الذي خضّ اعصابه :

ـ ولماذا أبحث لك عنه ؟

قالت بشيء من الاسى ورأسها ما زال مرمياً للامام :

ـ ومن يعاونني غيرك ؟

نهض محموماً ، توقّفت قامته الضامرة المختضة ، احس بتعب خفيف وغشاوة سريعة تهبط على عينيه ، أسند ظهره إلى الجدار حتى يستعيد أنفاسه وقال معترفاً :

ـ لا تنسي بأنني احبك وأتصور أنك تحبينني أيضاً .

واحتفظت ببرودها وهي تنبس :

ـ أعرف ذلك ولكن ما دخل الموضوع في هذا ؟

وتسرّب الغضب إلى صوته وهو يعلن :

ـ لماذا ترمينني في هذا المطبّ الذي أنا في غنى عن الغوص فيه ؟

وعلقت على تساؤله ببساطة وقالت :

ـ حسناً ، إجلس وسنتكلم عن الموضوع فيما بعد .

ومكث في وقفته الغاضبة تلك دقائق أخرى محاولاً السيطرة على تلاحق أنفاسه المرهقة المسكونة بالانفعال ودخان السكائر .

وقال :

ـ تستطيعين أن تبحثي عنه وحدك ، المدينة صغيرة وليست كبيرة كما تتصورين .

وظلت في صمتها بينما تدور عيناها في المكان وكأنهما تتعرفان عليه لأول مرة . وتشاغلت بعض الوقت بربط حذائها .

ترفع رأسها المستكين من انحناءته وتطلق في جوف الغرفة الساكنة ضحكة عالية لم يعرفها منها . ضحكت حتى ارتوت ثم صفقت بيديها وسكتت . كفت عن الكلام والتطلع الى أشياء الغرفة ومددت ساقيها مسترخية وكأنها قد فرغت من أداء جهد عسير وباحت بكل الكلمات التي اختزنتها ، واستغرقت في الوجوم .

نهض من مكانه ومشى باتجاهها . أمسك بوجهها بين يديه ، فتحت عينيها على سعتهما ونظرت اليه . إنه مأسور بهاتين العينين ، كم قبلهما من قبل فأفسد الكحل الذي يسوّرهما ، واشتهى ان يقبلهما ، ولكنه أفلت وجهها . واستدار عائداً إلى مكانه .

صفن بعض الوقت ، وضع يده على خده ثم أطلقها ، ربت بها على فخذه بخبطات عشواء لا تخضع لإيقاع ، أما هي فظلّت صامتة مستريحة والمجلة مرمية أمامها ، ومن غلافها يظهر ذلك الوجه الغريب ذو النظارات والشاربين المتدليين .

قالت وكأنها تنتشله :

ـ تكلّم .

وردّ بتعب واضح :

ـ ليس لدي ما أقوله .

وعادت ضحكتها الجديدة إلى الرنين مرة أخرى ، تكررت عدة مرات ، وعندما خزرها بطرف عينيه ابتلعت بقايا ضحكتها بغصّة ، وحاولت أن تعيد البسمة الناصعة إلى وجهها ولكنها فشلت ، ولم ترتسم عليه الا ابتسامة مرتجفة مشتتة . مدت يدها والتقطت المجلة وهي تنهض قائلة باستئذان :

ـ سأذهب .

وصحا من وجومه وهو يرفع عينيه لتصافحا قامتها الناعمة المغروسة في وسط الغرفةكنبتة نادرة وغريبة .

سألها :

ـ إلى أين ؟

قالت :

ـ لا أدري !

وعاد صوته الخبيء إلى التساؤل :

ـ أهكذا يكون لقاؤنا بعد غيبة ثلاثة شهور ؟

ولم تجد كلمة مناسبة تردّ بها على تساؤله المرير هذا ، وانشغلت بطي المجلة ثم شدّتها بيدها وكأنها تخاف عليها من الإفلات .

قال لها :

ـ أعطيني المجلة .

ـ وماذا ستصنع بها ؟

ـ لأبحث لك عنه .

ـ من هو ؟

ـ ذو الشاربين والنظارات .

أفلتت المجلة المطويّة من يدها ورمتها على الطاولو ، وانسلت خارجة بعد أن زرعت يدها في يده مصاحفة لثوان .

استرخى في مكانه ، وقد كفّت انفاسه عن التلاحق الثقيل ، وكانت عيناه تتأملان المقعد الفارغ المواجه له وكأنها ماثلة عليه . توزع الود والابتسام ، بينما صدى ضحكتها الجديدة الغريبة يرن في أذنيه فيغتال تلك اللحظات النادرة التي عرفها معها في تلك الأيام .

نهض من مكانه والتقط المجلة المشرعة الأوراق ، طواها ثم رماها من النافذة ، بعد ذلك نفض يديه واقترب من النافذة اكثر وشرعها على مصراعيها فأغراه الهواء القادم لأن يملأ صدره منه . كرر ذلك عدة مرات ثم حرك يديه بأرجحةبطيئةفانفلتت من صدره ضحكة كاسحة ، أعادها مرة أخرى محاولاً التعرف عليها ولكنه استنكرها وهي تعيث بصدره بشماتة مفزعة . كانت هي الأخرى غريبة عليه . ضحكة كاسحة ، جسورة ، مصطلاة ، فاجرة ، غضوب ، عربيدة ، ثكلى .

ضحكة فاجعة مخضبة لم ينجبها صدره الاسيان من قبل ، احتضنتها الغرفة الصغيرة بعض الوقت ثم بددتها لتحملها النافذة المشرعة إلى ساحات العدم والفناء .

ـ تونس ـ